الدُّعاء

حقيقته، شرفه، شروطه، وأحوال الناس فيه

د. الصغير بن عمار

حفظه الله

موقع التفريغ

الدعاء: حقيقته، شرفه، شروطه، وأحوال الناس فيه[1]

تعريف الدعاء 2

الفرق بين دعاء الـمسألة ودعاء الـعبادة..... 2

شرف الدعاء 4

مَن لازَم الدعاء في الرخاء، استجاب اللهُ له في الشِّدَّة 8

الإلـحاح في الدعاء: سبيل الـمرسلين، ودَيدَنُ الصالحين..... 10

قد يفتح الله علىٰ عبده في الدعاء فتوحًا أعظمَ مِن قضاء حاجته 11

مِن آداب الدعاء، ومكروهاته 12

ما يُصيبُ العبدَ مِن مَضَـرَّةٍ فبما سَلَفَ مِن ذنوبِه 14

مَن أُلـهِمَ الدعاء، فقد أُريدَ به الإجابة 17

الموفَّقَ للدعاء: فائزٌ في الـحالين، ورابحٌ في الدارَين 19

قد تتأخَّر الإجابةُ لـحِكمة، فأَحسِن ظنَّك بالله، فإنَّه بعباده رؤوف رحيم 21

1- هذا البحث مستلٌّ مِن كتابٍ لي في «الآداب»، يسَّر اللهُ إتمامَه بفضله ومنِّه.

تعريف الدعاء

أصلُ الدُّعاء في اللُّغة: الطَّلَب؛ لأنَّه استدعاءٌ لما يطلُبه الدَّاعي، ويُؤثِـرُ حصولَه.[2]

وحقيقتة في الشَّرع: إظْهَارُ الافْتِقَارِ إلىٰ الله، والتبَرُّؤ مِن الـحَوْلِ والقُوَّة، وهو سِمَةُ العُبوديَّة، واسْتِشْعَارُ الذِّلَّةِ البَشَرِيَّة.[3]

الفرق بين دعاء الـمسألة ودعاء الـعبادة

الدُّعاء نوعان:[4]

- دعاء الـمسألة.
- ودعاء الـعبادة.

يقول ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «فتح الباري» (1/ 20): «**وتارةً يكونُ الدُّعاءُ بالسُّؤال مِن الله والابتهال إليه**، كقول الدَّاعي: اللَّهُمَّ اغفر لي، اللَّهُمَّ ارحمني [= وهذا **دعاء المسألة**، وهو الأقرب إلىٰ أفهام النَّاس عند سماع كلمة «دعاء»]؛ **وتارةً يكونُ بالإتيان بالأسباب التي تقتضي حصولَ المطالب؛ وهو: الاشتغال بطاعة الله وذكره**، وما يُـحِبُّ مِن عبده أنْ يفعله، وهذا هو حقيقة الإيمان [=وهو: **دعاء العبادة**، وهو شاملٌ للدِّين كلِّه، ومنه دعاء المسألة]».

قلتُ: وعليه، **فكلٌّ مِن الدُّعاءَين طلَبٌ**، غير أنَّ دعاء المسألة: دعاءٌ بلسان الـمقال، ودعاء العبادة: دعاءٌ بلسان الـحال، لأنَّ العابِد لله، الممتثِلَ لـخطاب الشَّرع مـحبَّةً وتعظيمًا، طالبٌ بعبادته ثوابَ أعمالِه، راجٍ صلاحَ حالِه.

2- انظر «مفردات الراغب» (ص 315-316)، و«فتح الباري» لابن رجب (1/ 20).

3- انظر «شأن الدعاء» للـخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص 4).

4- انظر هذا التقسيم في «تفسير الطبري» (3/ 486)، و«القول البَديع في الصَّلاة علىٰ الـحبيب الشَّفيع» للسخاوي (ص 17).

يقول العلَّامة ابنُ عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والاستجابة في دعاء العبادة: قَبولها، والاستجابة في دعاء المسألة**: إعطاء الإنسان مسألته، وهذا وَعْدٌ مِن الله تعالىٰ؛ لكن لابدَّ لإجابة الدُّعاء مِن شروطٍ».[5]

واعلَم أنَّ الدُّعاء إذا ورَد في القرآن، فتارةً يُرادُ به هذا، وتارةً هذا، وتارةً مجموعُهما، إذْ هما متلازمان.[6]

يقول ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا فضلَ الدُّعاء بمعناه العام: «فما استجلَب العبدُ مِن الله ما يُحبّ، واستدفع منه ما يكره، بأعظمَ مِن اشتغاله بطاعة الله وعبادة الله وذكره، وهو حقيقة الإيمان».[7]

5- «شرح رياض الصالحين» (6/ 8).

6- انظر «مجموع الفتاوىٰ» (15/ 10).

7- «فتح الباري» (1/ 20).

شرف الدُّعاء

والدُّعاءُ عبادةٌ عظيمةٌ، أمَر اللهُ به عبادَه؛ فقال: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[النساء: ٣٢]، وأمَر بالتضَرُّع إليه به، فقال: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف: ٥٥]، وأمَر بإخلاصه له؛ فقال: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[غافر: ٦٥]، وأمَر به رسولَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾[الإسراء: ٨٠]، وأخبرَنا بأنَّه يُجيبُ دعاءَ مَن دعاه؛ فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: ١٨٦]، وأخبَر أنَّ الَّذين لا يدعُونه هم المتكبِّرون، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر: ٦٠].

واعلَم أنَّه كُلَّما خضَعَ العبدُ لربِّه كُلَّما زادَ عِزًّا، وكُلَّما استكبَر عن عبادته ودعائه كُلَّما ازداد ذُلًّا، فإنَّ مِن أسعَد الأوقات في هذه الدُّنيا: وُقوفَك بين يدي ربِّك، وتضرُّعَك إليه، بقلبٍ خاشعٍ، ورجاءٍ كبيرٍ، كما فعَل نبيُّ الله زكريَّا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[مريم: ٣ - ٤].

فتأمَّل -نوَّر الله قلبَك بفَهم كتابه- **كيف**:

- دعا خِفيةً، لكمال ما كان عليه مِن الحياء، والبُعدِ عن السُّمعة والرِّياء.
- مهَّد لدعائه بإظهار كِبَر السِّنِّ وضَعْف الحال، ممَّا يستدعي الرَّحمة ويوجب الإشفاق، مِن ربٍّ عظيمٍ خلَّاق، سبحانه.
- ذكَر فضلَ الله عليه، وكأنَّه يقول: (يا مَن استجاب لي في الرَّخاء، ظَنِّي بك ألَّا تخيِّبَ رجائي وقتَ الشِّدة). وفي هذا:
  - مثالٌ لما كان عليه الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ مِن كمال الأدب مع الله، والعِلم به.
  - بيانٌ لكَرَم الله، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يشقىٰ مَن دعاه، ولا يخيبُ مَن والاه.

وعن النُّعْمَانِ بنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سَمِعْتُ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»، ثُمَّ قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر: ٦٠]. رواه أبو داود (1479) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (11400)، والترمذي (3247) ، وابن ماجه (3828)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (553).

قال العلامة الـخطابي: «معناه: أنَّه مُعْظَمُ العبادة، أو أفْضَلُ العبادة».[8]

ولم يرِد هذا اللَّفظ في غير الدُّعاء مِن العبادات، لفضله وشرفه.[9]

قال العلامة ابنُ باديس رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وإنَّما كان الدُّعاءُ مِن العبادة بهاته المنزلة؛ لأنَّ حقيقةَ العبادة هي التذلُّل والخضوع**، وهو حاصلٌ في الدُّعاء غايةَ الحصول، وظاهرٌ فيه أشدَّ الظهور».[10]

ويجتمع في الدُّعاء مِن أنواع التعبُّد ما لا يجتمع في غيره، فهو يستدعي:[11]

- حضورَ القلب، والتوجُّه إليه، رغبةً ورهبةً، وتوكُّلًا ورجاءً.
- وعبادةَ اللِّسان، مِن اللَّهَج بالتحميد والتقديس، والابتهال والتضرُّع.
- وعبادة البدن بالانكسار، والاستكانة بين يدي العليِّ الـجبَّار.

يقول العلامة ابنُ باديس رَحِمَهُ اللَّهُ: «لـمَّا ثبت شرعًا أنَّ الدعاءَ عبادةٌ، **فمَن دعا شيئًا فقد عَبَده، ولو كان هو لا يسمِّي دعاءَه عبادةً، جهلًا منه أو عنادًا؛ لأنَّ العِبرةَ بتسمية الشَّرع واعتباره، لا بتسمية المكلَّف واعتباره**».[12]

8- «شأن الدعاء» (ص 5).

9- انظر «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» للمرتضىٰ الزبيدي (5/ 4).

10- انظر «الآثار» (1/ 221) (1/ 289).

11- انظر «تصحيح الدعاء» للعلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 17-18).

12- انظر «الآثار» (1/ 221) (1/ 470).

وقال: «**لـمَّا ثبت أنَّ الدعاءَ عبادةٌ، فالدَّاعي عابِدٌ والمدعُوُّ معبودٌ**، والمعبودُ إلـٰه، فمَن دعا شيئًا فقد اتَّـخَذه إلـٰهه؛ لأنَّه فعَل له ما لا يفعَل إلَّا للإلـٰه».[13]

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ليسَ شَيءٌ أَكْرَمَ علىٰ اللهِ مِن الدُّعَاءِ**». روه الترمذي (3370)، وابن ماجه (3829)، وأحمد (8748)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (1629).

يقول الإمام الباجي رَحِمَهُٱللَّهُ في «وصيَّته لولديه» (ص 29): «**واستَعِينا بالدُّعاء، والْـجَآ إليه في البَأساء والضَّرَّاء، فإنَّ الدُّعاءَ سَفِينَـةٌ لا تَعْطَب، وحِزبٌ لا يُغلَب، وجُندٌ لا يَـهزُب**».

فوصف رَحِمَهُٱللَّهُ **الدُّعاءَ بثلاثة أوصافٍ؛ وهي أنَّه:**

❶ **سَفِينَـةٌ لا تَعْطَب**؛ أي: لا تتعطَّل.

❷ **وحِزبٌ لا يُغلَب**؛ أي: لا يـخِيب، ولا يخسَر.

❸ **وجُندٌ لا يَـهزُب**؛ أي: لا يتأخَّر، وإنْ استطالَه الناس.

وصدَق رَحِمَهُٱللَّهُ، **فإنَّ مِن الـجهاد بالنَّفس: دعاءَ الله، والتوجُّهَ إليه**، كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هذه الأُمَّةَ بضعيفِها، بدعوَتِهم، وصلاتِهم، وإخلاصِهم**». رواه النَّسائي (3178)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (3205).

وما أجمَلَ قولَ ابنِ تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: «**القلوب الصَّادقة، والأدعية الصالحة؛ هي: العسكر الذي لا يُغلَب، والـجُنْدُ الَّذي لَا يُـخذَل**».[14]

قال الأَصْمَعِيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ (المتوفَّىٰ سنة 216 هـ): «لَمَّا صَافَّ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ التُّرْكَ، وهَالَهُ أَمْرَهُم، سأل عن مُحَمَّدِ بنِ واسِع، فقيل: هو ذاك في الـمَيمنة جانحٌ علىٰ قوسه يُبَصْبِصُ

13- «الآثار» (1/ 471).

14- «الفتاوىٰ» (28/ 644)، بتصرف.

بِإِصْبَعِهِ نَحْوَ السَّماء، قال: تِلك الإِصْبَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن مائةِ ألفِ سَيْفٍ شَهِيرٍ وشَابٍّ طَرِيرٍ».[15]

وصدَق الحافظ ابنِ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: «**هل ارتفعت أكُفٌّ، وانبسطت أيدٍ، فضاهت أكُفَّ الراغبين؟**».[16]

وممَّا يُنسَب للإمام الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قولُه:

أَتَهـــزَأُ بالـــدُّعاءِ وتَزدَرِيـــهِ ... ومـا تَـدري بمـا صَـنَعَ الـدُّعاءُ

سِـهامُ اللَّيـلِ لا تُخطِـي؛ ولكـنْ ... لهـــا أَمَـــدٌ ولِلأَمَـــدِ انقِضـــاءُ

يقول العلامة ابنُ جُزَي الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[17]: «**يَنْبَغِي ملازمة الدُّعاء لأربعة أوجه:**

❶ **أحدُها**: الأمر بِهِ فِي الْكتاب وَالسّنة

❷ **الثَّاني**: أنَّه سَبَبُ السَّعَادَة لقوله جلَّ وعَزَّ: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[مريم: ٤].

❸ **الثَّالث**: لرجاء الإجابة في المسؤول.

❹ **الرَّابع**: لإظهار ذِلَّة افتقار العُبوديَّة وعِزَّة قُدرة الربوبية».

15- انظر «تاريخ الإسلام» للذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (3/ 526). والطرير: ذو الهيئة الحسنة.

16- «صيد الخاطر» (ص 432).

17- انظر «القوانين الفقهية» (ص 279).

مَن لازَم الدُّعاء في الرّخاء، استجاب اللهُ له في الشِّدَّة

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لهُ عِندَ الشَّدَائِدِ والكَرْبِ، فلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ في الرَّخَاء**». رواه الترمذي (3382)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (593).

والمعنىٰ: **فليُلازِم الدُّعاء في حال الصِّحة والرَّفاهية والسَّلامة مِن الـمِحَن**، فإنَّ مِن شِيمَةِ المؤمن الشَّاكِرِ الـحازِمِ أنْ يَرِيشَ للسَّهْمِ [يُرَكِّب فيه الرِّيش] قبل الرَّمْيِ، **ويَلْتَجِئَ إلىٰ الله تعالىٰ قَبْلَ مَسِّ الاضْطِرار**.[18]

وذكر الـحَليمي جُملةً مِن آداب الدُّعاء، ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومنها: المحافظة علىٰ الدُّعاء في الرَّخاء دون تخصيص حال الشِّدة والبلاء».[19]

وروي عن أبي الدَّرْداء قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ يُكْثِرِ الدُّعَاءَ في الرَّخَاء يُسْتَجَابُ لَهُ عند البَلَاءِ، ومَن يُكْثِرْ قَرْعَ البابِ يُفْتَح لَهُ**». رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (9530).

وعلىٰ هذا كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فقد قال تعالىٰ عن ذِي النُّون عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الصافات: ١٤٣ -١٤٤]؛ ولكنَّه كان عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن الدَّاعين الذَّاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء، فأنقذه ونجَّاه. **المراد بالدعاء في الرّخاء** -كما قال الحليمي-: دعاء الثّناء والشُّكر والاعتراف بالـمِنن، وسؤال التوفيق والمعونة والتأييد، والاستغفار لعوارض التقصير.[20]

وقارِن هذا بـحال الكافر والفاجر، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾[الزمر: ٨]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ

18- انظر «مرعاة المفاتيح» لشيخ شيوخنا عبيد الله الـمباركفوري رَحِمَهُ اللَّهُ (7/ 360).

19- «المنهاج» (1/ 523).

20- انظر «المنهاج في شعب الإيمان»، و«فيض القدير» (6/ 150).

ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾[يونس: ١٢].[21]

وروي أنَّ سلمانَ الفارسيَّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «إذا كان الرجلُ يدعُو اللهَ في السرَّاء، فنزلت به الضَّرَّاءُ، فيدعُو، فتقول الملائكةُ: صوتٌ معروفٌ مِن آدَمِيٍّ ضعيفٍ، كان يدعُو في السَّرَّاء، فيَشفَعُون له؛ وإذا كان الرَّجُلُ لا يدعُو اللهَ في السَّرَّاء، فنزلت به الضَّرَّاءُ، فدعا، فيقولُ الملائكةُ: صوتٌ مُنْكَرٌ مِن آدَمِيٍّ ضعيفٍ، كان لا يدعُو في السَّرَّاء، فنزلت به الضَّرَّاءُ، فلا يَشفَعُون له». رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (29480)، والبيهقي في «الشعب» (1100)، بهذا اللفظ.

21- انظر كتابي: «الشرح الميسَّر المفيد علىٰ أربع قواعد في التوحيد».

الإلحاح في الدُّعاء: سبيل المرسلين، ودَيدَنُ الصَّالحين

مَن تأمَّل حال الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وأتباعَهم مِن الأولياء، وجدَهم أعظمَ النَّاس إلحاحًا في الدُّعاء، وذلك لما كانوا عليه مِن قوَّة اليقين، وكمال الفقه في الدِّين، وصادق العبودية لربِّ العالمين.

قال حُذَيْفَة بنُ اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: «**لَيَأْتِيَنَّ على النَّاسِ زَمَانٌ لا يَنْجُو فيه إلَّا الَّذي يَدْعُو بدُعَاءِ كدُعَاءِ الغَرِيق**». رواه ابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» (37145)، والحاكم في «المستدرك» (8308)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

وقال الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أَفْضَلُ الدُّعاءِ: الإلحاحُ على الله** عَزَّوَجَلَّ **والتَّضَرُّعُ إليه**». رواه البيهقي في «الشُّعب» (1072).

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأحَبُّ خَلق الله إليه: أكثرُهم وأفضلُهم له سُؤالًا، وهو يُحبُّ المُلِحِّين في الدُّعاء**... وكُلَّما ألحَّ العبدُ عليه في السُّؤال أحبَّه وقرَّبه وأعطاه».[22]

وإنَّ سيرةَ إمامِنا وسيِّدِنا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ **حافلةٌ بمشاهد الإلحاح في الدُّعاء**، فقد قنتَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ شَهْرًا يَدْعُو على أُنَاسٍ مِن المشركين قَتَلُوا سبعينَ مِن أصحابه، يُقالُ لهم القُرَّاءُ. رواه البخاري (4096)، ومسلم (677)، بروايات كثيرة.

ودعا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ طويلًا يومَ بدرٍ، حتَّى أخذ أبو بكر الصدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ بيَدِهِ، وقال: «**حَسْبُكَ يا رسُولَ الله، فقد أَلْحَحْتَ على رَبِّكَ**»، فَخَرَجَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وهو يقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[القمر: ٤٥ - ٤٦]. رواه البخاريُّ (2915). **وهذا الإلحاحُ هو عَيْنُ العُبوديّة**، كمال قال ابن القيم في «مدارج السالكين» (2/ 228).

وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إذَا دَعا دَعا ثَلَاثًا، وإذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا. رواه مسلم (1794).

22- «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» (ص 91).

وعلىٰ هذا كان السَّلف، فقد روىٰ ابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» (35144)، وأحمد في «الزُّهد» (1762)، وابنُ أبي الدُّنيا في «الصمت» (118)، وأبو نُعيم في «الحلية» (2/ 235) أنَّ مُوَرِّقًا العِجْلِيَّ كان يقول: «**لقد سألتُ اللهَ حاجَةً مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، فمَا أُعْطِيتُها، ولا أَيِسْتُ منها**»؛ أي: وما سَئِمْتُ مِن الدُّعاء بها.

يقول العلامة ابنُ مايابىٰ الشِّنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واللهُ لا يقبَل دعاءَ مَن حصل له الـملَل مِن الدُّعاء؛ لأنَّ الدعاءَ عبادةٌ سواء حصَلت الإجابة أو لم تحصُل، فلا ينبغي للمؤمن أنْ يـمَلَّ مِن الدُّعاء، لأنَّه عبادةٌ لله تعالىٰ».[23]

قد يفتح الله علىٰ عبده في الدُّعاء فتوحًا أعظمَ مِن قضاء حاجته

اعلَم -ملأ اللهُ قلبَك إيمانًا ويقينًا- أنَّ اللهَ يفتَحُ علىٰ عبده -إذا ألَحَّ عليه- مِن لذيذ مناجاته وسؤاله، والذُّلِّ بين يديه، والـخضوع إليه، والتوسُّل إليه بأسمائه وصفاته، وتفريغ قلبه له، وعدم تعلُّقه بغيره، ما قد لا يحصُل له بدون ذلك الإلحاح.

قال بعضُ العارِفِين: «**إنَّه لتكُونَ لِي حَاجَةٌ إلىٰ الله، فأسألُه إيَّاها، فيَفتحُ عليَّ مِن مُناجاتِه ومعرفتِه، والتَّذَلُّلِ له، والتَّمَلُّقِ بين يدَيه: ما أُحِبُّ مَعَهُ أنْ يُؤَخِّرَ عَنِّي قَضَاءَهَا، وتَدُومَ لي تلك الـحالُ**».

وفي بعض الآثار: «إنَّ العَبْدَ لَيدعُو رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فيَقُولُ اللهُ جَلَّجَلَالُهُ لملائكته: **اقْضُوا حاجةَ عَبدي وأَخِّرُوهَا، فإنِّي أُحِبُّ أنْ أسمَعَ دعاءَه**، ويدعُوه آخَرُ، فيَقُولُ اللهُ جَلَّجَلَالُهُ لملائكته: اقْضُوا حاجتَه وعَجِّلُوهَا، فإنِّي أَكْرَهُ صَوتَه».[24]

يقول الـحافظ ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما دام العبدُ يلِحُّ في الدُّعاء، ويطمعُ في الإجابة مِن غير قَطعِ الرَّجاء، فهو قريبٌ مِن الإجابة، ومَن أَدمَن قرعَ الباب، يُوشك أنْ يُفتح له».[25]

23- «فتح المنعم» (3/ 345).

24- انظر «الـمدارج» (2/ 229).

25- «جامع العلوم والـحكم» (3/ 1158).

وقد قيل: «**كُلُّ الأشياء ترحَلُ ولا تعود، إلَّا الدُّعاء... يرحَلُ بالرَّجاء، ويعودُ بالعَطاء**».

مِن آداب الدُّعاء، ومكروهاته

قال ابن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ[26]: «**للدُّعاء أركان، وأجنحة، وأسباب، وأوقات:**

- فإنْ وافق أركانَه قوِيَ،
- وإنْ وافق أجنحتَه طار في السماء،
- وإنْ وافق مواقيتَه فاز،
- وإنْ وافق أسبابَه أنجَح.

فأركانه:

- حضور القلب،
- والرِّقَّة،
- والاستكانة،
- والخشوع،
- وتعلُّق القلب بالله، وقطعه مِن الأسباب.

وأجنحته: الصدق.

ومواقيته: الأسحار.

وأسبابه: الصَّلاة علىٰ محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

يقول ابنُ جُزَي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[27]: «**وآدابُ الدُّعاء سبعة:**

1. الوضُوء له.
2. وتقديمُ ذكر الله والصَّلاة علىٰ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلَه.
3. ورَفع اليدَين به.

26- انظر «الشفا» للقاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ (2/ 151).

27- «القوانين الفقهية» (ص 279).

4 والإلـحاح بالتَّـكرار.

5 والإخلاص، فلا يُستجابُ إلَّا لـمُضطَرٍّ أو مـخلِص.

6 والتضرُّع حين السُّؤال.

7 وقَصد الأوقاتِ الَّتي تُرجَىٰ فيها الإجابة: كساعة الـجُمُعة، وليلة القَدْر، والسُّجُود، وبين الأذان والإقامة، وحُضُور الـجهاد، والثلُث الأخير مِن اللَّيل، ودُبُر الصَّلوات...

ومكروهاتُـه سبعة:

1 أن يقولَ: «اللَّهُمَّ افْعَل لي كذا إنْ شِئتَ».

2 وتَـكَلُّف السَّجْع فيه.

3 والاستعجال في الإجابة، وهو أنْ يقولَ: «دَعَوتُ فلَم يستجب لي».

4 ورَفع البَصَر إلىٰ السَّماء حين الدُّعاء.

5 والدُّعاء علىٰ نَفْسِه أو مالِـه أو وَلَدِه.

6 والدُّعاء علىٰ أحَدٍ من الـمسلمين.

7 وتـخصيص نَفْسِه بالدُّعاءِ دون الـمسلمين، وكراهية هذا في حقِّ الإمام أشَد».

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأفضل الدُّعاء: ما وَرَد في القرآن والـحديث».[28]

28- وانظر «فتح المنعم شرح زاد المسلم» لابن مايابىٰ (3/ 345).

ما يُصيبُ العبدَ مِن مَضَرَّةٍ فبما سَلَفَ مِن ذنوبِه

ودليلُه في القرآن قولُه تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾[المائدة: ٤٩]، وقولُه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[الشورىٰ: ٣٠]، وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾[آل عمران: ١٦٥]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾[آل عمران: ١٥٥]، وقولُه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾[النساء: ٧٩].

قال أبو العالية: «الحسنة: النِّعمة، والسيئة: البلية».[29]

وعن أبي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يُصِيبُ عَبدًا نَكْبَةٌ فما فَوقها أو دُونَها إلَّا بذَنبٍ، وما يَعفُو اللهُ عنه أكثَرُ**، وقرأ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورىٰ:30]». رواه التِّرمذي (3252)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (7732)، وإن كان قد ضعفه في «ضعيف الترمذي» (ص 412).

يقول المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كأنَّه تعالىٰ يقول: قاصَصْتُك بشيءٍ مِن ذنوبك لتنتبه مِن رَقدتك، وأعفو عن الكثير الباقي».[30]

وعن البَرَاء بنِ عازِبٍ قال: قال رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «**ما اخْتَلَجَ عِرْقٌ ولا عَيْنٌ إلَّا بذَنْبٍ، وما يَدْفَعُ اللهُ عنه أكثَرُ**». رواه الطبراني في «المعجم الصَّغير» (1053)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (5521).[31]

29- انظر «زاد المسير» (1/ 435).

30- «فيض القدير» (5/ 414).

31- انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (2215).

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالإنسان لا يأتيه الخيرُ إلَّا مِن ربِّه وإحسانه وجُوده، ولا يأتيه الشرُّ إلَّا مِن نفسه، فما أصابه مِن حسنةٍ فمن الله، وما أصابه مِن سيئةٍ فمن نفسه».[32]

ولهذا، لمَّا قيل لإبراهيم بن أدهَمَ: ما بالُنا ندعو فلا يُستجاب لنا، وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[غافر: ٦٠]؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[33]: «**لأنَّ قلوبَكم ماتت بعشرة أشياء:**

❶ عرفتُم الله، ولم تقوموا بحقِّه.

❷ زعمتم حبَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ولم تعملوا بسنَّته.

❸ قرأتم القرآن، ولم تعملوا بحدوده.

❹ أكلتم نِعَم الله، ولم تؤدُّوا شكرَها.

❺ قلتم: إنَّ الشيطان عدوٌّ لكم، وواطأتموه علىٰ المعاصي.

❻ قلتم: نحبُّ الجنة، ولم تعملوا لها.

❼ قلتم: نخاف النَّار، ولم تهربوا منها.

❽ قلتم: نخشىٰ الموت، ولم تستعدُّوا له.

❾ انتبهتم مِن النَّوم فاشتغلتم بعيوب الناس، ونسِيتم عيوبكم.

❿ دفنتم موتاكم، ولم تعتبروا بهم. فكيف يستجيب لكم؟».

وفي «صحيح مسلم» (1015) أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يمُدُّ يَدَيهِ إلىٰ السَّماءِ، يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطْعَمُهُ حَرامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرامٌ، ومَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وغُذِيَ بالـحَرامِ، ثم قال: «**فأنَّىٰ يُستَجابُ له؟**».

فتأمَّل كيف اجتمع لهذ الدَّاعي جُملةٌ مِن أسباب قَبول الدُّعاء، غير أنَّه لم يُستجَب له، والسَّبب عدم طهارة باطنه الذي غذَّاه بالـحرام، ويدخُل في هذا الإصرار علىٰ الآثام، والتَّقصير في طاعة القويِّ العلَّام، سبحانه.

32- «الـحسنة والسيئة» (ص 24).

33- انظر «الإحياء» (3/ 38)، و«النسق الغالي» (ص 587).

قال بعضُ السَّلف: «**لا تستبطئ الإجابة، وقد سدَدْتَ طُرقها بالمعاصي**». وفي هذا قيل:

نحـن نـدعُو الإلـه في كُـلِّ كَـرْبٍ ثُـمَّ ننسـاهُ عنـدَ كَشـفِ الكُـروبِ

كيــفَ نرجُــو إجابــةً لــدُعاءٍ قــدْ سَــدَدْنا طرِيقَهــا بالــذُّنوبِ

قال وهبُ بن مُنبِّه: «**مَثَلُ الذي يدعو بغير عمل، كمَثَل الذي يرمي بغير وَتَر**».

وعنه أيضًا: «**العملُ الصالحُ يُبَلِّغ الدُّعاء**»، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[فاطر: ١٠].

وقيل لسفيان: لو دعوتَ الله؟ قال: «**إنَّ تركَ الذُّنوب هوَ الدُّعاء**».

وروي عن عمر قولُه: «**بالورع عما حرَّم الله يقبلُ الله الدُّعاء والتَّسبيح**».[34]

إذا تقرَّر هذا، فاعلَم -سدَّدك الله ورعاك- أنَّ فعل الطاعات موجِبٌ لاستجابة الدُّعاء، ودلائل الشَّرع علىٰ هذا كثيرة، ومنها: توسُّلُ أصحاب الغار بأعمالهم الصَّالحة التي أخلَصوا فيها لله تعالىٰ ودَعَوْا الله بها، فأُجيبت دعوتُهم، وانفرَجت صخرتُهم وكُربتُهم، و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[الرحمن: ٦٠].

يقول العلَّامة ابنُ بطال المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ شارِحًا قولَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل تُنصَرون وتُرزَقون إلَّا بضُعفائكم، بصَومهم، وصلاتهم، ودعائهم**» -وقد تقدَّم تخريجه-: «وتأويل ذلك: أنَّ **عبادةَ الضُّعفاء ودعاءَهم أشدُّ إخلاصًا وأكثرُ خشوعًا؛ لخلاء قلوبهم مِن التعلُّق بزُخرُف الدُّنيا وزينتِها**، وصفاءِ ضمائرهم ممَّا يقطعهم عن الله، فجعلوا همَّهم واحدًا، فزكَت أعمالُهم، وأُجيبَ دعاؤهم.[35]

34- انظر هذه الآثار في «جامع العلوم والحكم» (1/ 293-295).

35- «شرح البخاري» (5/ 90).

مَن أُلـهِمَ الدُّعاء، فقد أريدَ به الإجابة

ذُكِر عن عمر بن الـخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه قال: «**إنِّي لا أَحْمِلُ هَمَّ الإجابةِ، وإنَّما أَحْمِلُ هَمَّ الدُّعاء، ولكن إذا أُلـهِمْتُ الدُّعاءَ فإنَّ الإجابةَ معه**».

ومِن فضل الله علىٰ عبده أنْ:

- يوفقَّه للعمل الصالح، ثم يُـثيبُه.
- ويهديَه للدعاء، ثم يُـجيبُه.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: «إذا أراد اللهُ بعَبدٍ خيرًا أَلـهَمَه دعاءَه والاستعانةَ به، وجَعَل استعانتَه ودعاءَه سببًا للخير الذي قضاه له»، وذكَر أثرَ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ثم قال: «**كما أنَّ اللهَ تعالىٰ إذا أراد أنْ يُشبِـعَ عبدًا أو يروِيَه أَلـهَمَه أنْ يأكلَ أو يشربَ**، وإذا أراد اللهُ أنْ يتُوبَ علىٰ عبدٍ أَلـهَمَه أنْ يتوبَ، فيتوبُ عليه، وإذا أراد أنْ يرحمَه ويدخلَه الجنَّة يسَّرَه لعملِ أهلِ الجنَّة، **والمشيئةُ الإلهيةُ اقتضت وجودَ هذه الخيراتِ بأسبابها الـمُقَدَّرة لها**، كما اقتضت وجودَ دخول الجنَّة بالعمل الصَّالح، ووجودَ الولد بالوطء، والعِلمَ بالتَّعليم، فمبدأ الأمور مِن الله، وتمامُها علىٰ الله».[36]

ويقول ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ: «**وليس شيءٌ مِن الأسباب أنفعَ مِن الدُّعاء، ولا أبلَغَ في حصول المطلوب**. ولمَّا كان الصَّحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أعلمَ الأمةِ بالله ورسوله، وأفقهَهم في دينه، كانوا أقومَ بهذا السَّبب وشروطه وآدابه مِن غيرهم. وكان عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يستنصر به علىٰ عدوِّه، وكان أعظمَ جُندَيه، وكان يقول للصحابة: لستم تُنصَرون بكثرة، وإنَّما تُنصَرون مِن السَّماء».[37]

لـو لـم تُـرِدْ بَـذْلَ مـا أرجُـو وأطلبُـهُ مِـن جـودِ كفِّـكَ مـا عـوَّدتَني الطَّلَبـا

36- «اقتضاء الصراط المستقيم» (2/ 229).

37- «الداء والدواء» (ص 29).

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا كان كُلُّ خير أصله التَّوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد، فمفتاحه الدُّعاء والافتقار وصِدق اللَّجأ والرَّغبة والرَّهبة إليه، **فمتىٰ أعطىٰ العبدَ هذا المفتاح فقد أراد أنْ يَفتح له، ومتىٰ أضلَّه عن المفتاح بقي بابُ الخير مُرْتَجًا دونه**».[38]

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فمَن أُلـهِمَ الدُّعاءَ فقد أُريد به الإجابة**، فإنَّ الله سبحانه يقول: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠]».[39]

وقال: «**مَن أُعطي منشورَ الدُّعاء أُعطي الإجابة، فإنَّ اللهَ لو لم يُرِد إجابتَه لما أَلهمه الدُّعاء**».[40]

وقال: «**واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحبُّ تذلُّلَ عبيده بين يديه، وسؤالَـهم إيَّاه**، وطلبَهم حوائجَهم منه، وشكواهم إليه، وعِياذَهم به منه، وفِرارَهم منه إليه».[41]

38- «الفوائد» (ص 97).

39- «الداء والدواء» (ص 30).

40- «عدة الصابرين» (ص 60).

41- «مدارج السالكين» (3/ 103).

الموفَّقَ للدُّعاء: فائزٌ في الحالين، ورابحٌ في الدارَين

إنَّ الموفَّقَ للدُّعاء فائزٌ لا محالةَ، وإنْ لم يظهَر له أثرُ ذلك بادِيَ الرأي، ودليلُه قولُه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ما مِن مُسْلِمٍ يدعُو بدعوةٍ ليسَ فيها إثْمٌ، ولا قَطِيعَةُ رَحِم، إلَّا أعطاهُ اللهُ بها إحدَىٰ ثلاثٍ:**

- **إمَّا أَنْ تُعَجَّلَ له دعوتُه،**
- **وإمَّا أنْ يَدَّخِرَها له في الآخرة،**
- **وإمَّا أنْ يَصْرِفَ عنه مِن السُّوءِ مِثلَها**».

قالوا: إذًا نُكْثِرُ! قال: «**اللهُ أكثَر**». رواه أحمد في «المسند» (11133)، والبخاري في «الأدب» (710)، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (1633): حسن صحيح.

قال الإمامُ ابن عبد البر رَحِمَهُٱللَّهُ: «فيه دليل علىٰ أنَّه لا بُدَّ مِن الإجابة علىٰ إحدىٰ هذه الأوجه الثلاثة».[42]

وعليه، **فكلُّ داعٍ يُستجاب له، لكنْ تتنوَّعُ الإجابة:**

- فتارةً تقع بعَين ما دعا به،
- وتارةً بعِوَضه.

يقول الحافظ ابنُ حجر رَحِمَهُٱللَّهُ[43] عند حديث: «**وإنْ سألَني لَأُعطِينَّه، ولَئِنِ استَعاذَني لَأُعِيذَنَّه**» [البخاري (6502)]: «**وقد اسْتُشْكِلَ بأنَّ جماعةً مِن العُبَّادِ والصُّلَحاءِ دَعَوْا وبالَغُوا ولم يُجابُوا، والجواب أنَّ الإجابة تتنوَّع:**

- **فتارةً يقع المطلوبُ بعَينه علىٰ الفَور.**
- **وتارةً يقع؛ ولكن يتأخَّر لحكمةٍ فيه.**

42- «التمهيد» (10/ 297).

43- «فتح الباري» (11/ 345).

- **وتارةً** قد تقع الإجابةُ، ولكن بغير عَين المطلوب، حيث لا يكون في المطلوب مصلحةٌ ناجِزةٌ، وفي الواقع مصلحةٌ ناجِزةٌ أو أصلحُ منها».

وقد قالوا: «**كرَمُ الله لا تنقضي حكمتُه، ولذلك لا تقع الإجابةُ في كلِّ دعوةٍ**»، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[المؤمنون: ٧١].[44]

يقول العلامة ابنُ مايابىٰ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[45]: «**وتأخيرُ الإجابة:**

- إمَّا لأنَّه لم يأتِ وقتُها، فإنَّ لكلِّ شيءٍ وقتا.
- وإمَّا لأنَّه لم يقدَّر في الأزَل قبولُ دعائه في الدُّنيا، ليعطَىٰ عِوَضه في الآخرة.
- وإمَّا أنْ يؤخَّر قبولُ دعائه ليُلِحَّ ويبالِغَ فيه؛ لأنَّ الله يحبُّ الإلحاحَ في الدُّعاء والسُّؤال، مع ما في ذلك مِن الانقياد والاستسلام لله تعالىٰ، وإظهار الافتقار إليه.
- وإمَّا لفقد شرطٍ مِن شروط إجابة الدُّعاء.

وإمَّا لأنَّ الداعي يدعو وفي قلبه ذرَّةٌ مِن الاعتماد علىٰ ماله أو جاهه أو أصدقائه أو اجتهاده، فهو في الحقيقة ما دعا اللهَ إلَّا باللسان، وأمَّا القلب فإنَّه يعوِّلُ في تحصيل ذلك المطلوب علىٰ غير الله، **وأمَّا إذا دعا اللهَ في وقتٍ لا يكونُ القلبُ فيه ملتفتًا إلىٰ غير الله تعالىٰ؛ فالظَّاهر أنَّه يستجاب له**؛ لأنَّ وعْدَ الله لا يتخلَّفُ، ومَن يُكثِرُ قَرْعَ الباب يوشك أنْ يُفتَحَ له، **فمَن أكثَرَ الدُّعاءَ بحضورٍ وذِلَّة وانكسار يوشك أنْ يستجاب له**».

44- انظر «التمهيد» (5/ 345-346).

45- انظر «فتح المنعم شرح زاد المسلم» (3/ 345).

قد تتأخَّر الإجابةُ لحِكمة، فأَحسِن ظنَّك بالله، فإنَّه بعباده رؤوف رحيم

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**يُستجابُ لأَحَدِكم ما لم يَعجَلْ، فيقولُ: دعوتُ، ودعوتُ، فلم أرَه يُستجابُ لي، فيَسْتَحْسِرُ عندَ ذلك** [أي: يتعب فينقطع]، **ويدَعُ الدُّعاءَ**». رواه مالك (1/ 213)، والبخاري (6340) مختصرًا، ومسلم (2735) واللَّفظ له.

يقول الباجي رَحِمَهُ اللَّهُ[46]: «قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُستجابُ لأَحَدِكم**» يحتَمِلُ معنَيين:

- **أحدُهما**: الإخبارُ عن وُجُوبِ وُقُوعِ الإجابة.
- **والثَّاني**: الإخبارُ عن جَوازِ وُقُوعِ الإجابة.

فإذا كانت في معنىٰ الإخبار عن الوُجُوب: **فإنَّ الإجابةَ تكونُ لأحَدِ الثَّلاثةِ أشياءَ:**

1. إمَّا أنْ يُعَجِّلَ ما سأل فيه.
2. وإمَّا أنْ يُكَفِّرَ عنه به.
3. وإمَّا أنْ يَدَّخِرَ لَهُ.

فإذا قال: «قد دَعَوْتُ، فلَمْ يُسْتَجَبْ لي» بَطَلَ وُجُوبُ أَحَدِ هذه الثَّلاثةِ الأشياءِ، وعَرَىٰ الدُّعَاءُ مِن جَمِيعِها.

وإذا كان بمعنىٰ جَوازِ الإجابة: فإنَّ الإجابةَ حينَئِذٍ تكونُ بفعلِ ما دعا به خَاصَّةً، ويَمْنَعُ مِن ذلك قولُ الدَّاعِي: «قد دَعَوْتُ، فلَمْ يُسْتَجَبْ لي»، لأنَّ ذلك مِن باب القُنوطِ وضَعفِ اليقين والسَّخَطِ».

يقول الحافظ ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلَم أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لا يرُدُّ دعاءَ المؤمن، غَيرَ أنَّه قد تكونُ المصلحة في تأخير الإجابة، وقد لا يكون ما سأله مصلحةً في الجملة، فيُعوِّضُه عنه ما

46- انظر «المنتقىٰ شرح الموطأ» (1/ 357).

يُصلِحُه. ورُبَّما أخَّر تعويضَه إلىٰ يوم القيامة. **فينبغي للمؤمن ألَّا يقطَع المسألةَ لامتناعِ الإجابة؛ فإنَّه بالدُّعاء متعبِّدٌ، وبالتَّسليم إلىٰ ما يراه الحقُّ له مصلحةً مفوِّض**».[47]

ونحوُه قولُ الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالدَّعوة التي ليس فيها اعتداء، يحصُل بها المطلوبُ أو مثلُه، وهذا غايةُ الإجابة؛ فإنَّ المطلوبَ بعَينه قد يكونُ ممتنعًا، أو مُفسدًا للداعي أو لغيرِه، والداعي جاهلٌ، لا يعلم ما فيه المفسدةُ عليه، والربُّ قريبٌ مجيبٌ، وهو أرحمُ بعِباده مِن الوالدة بوَلَدها، **والكريمُ الرحيمُ إذا سُئلَ شيئًا بعَينه، وعَلِم أنَّه لا يصلُح للعَبد إعطاؤُه أعطاه نظيرَه**، كما يَصنع الوالدُ بوَلَده إذا طلَب منه ما ليس له، فإنَّه يُعطيه مِن ماله نظيرَه، ولله الـمَثَلُ الأعلىٰ».[48]

وللحافظ أبي الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **كلام حسَن في هذا الباب، ذكره في عدَّةِ مواطنَ مِن كتابه «صيد الخاطر»** (ص 171، 220-221، 352)، سأذكر لك خلاصتَه بتصرُّفٍ واختصار، علىٰ شكل فوائدَ في نقاط، فافهمها، وسلِّم قلبَك مِن أنْ يختلِجَ فيه رَيبٌ أو استعجال.

❶ ينبغي لـمَن وقع في شدَّة ثم دعا، أنْ لا يختلِجَ في قلبه أمرٌ مِن تأخير الإجابة أو عدمها؛ لأنَّ الذي عليه أنْ يدعوَ، **والمدعوُّ مالكٌ حكيم، فإنْ لم يجِب، فعَل ما يشاء في مُلكه، وإنْ أخَّر، فعَل بمُقتضىٰ حكمته.**

❷ الـمُعترِض علىٰ الله في سِرِّه خارجٌ عن صِفةِ العبودية، مُزاحِمٌ لـمرتبته، مستحِقٌّ لعقوبته.

❸ اختيارُ الله جَلَّجَلَالُهُ للعبد خيرٌ مِن اختياره لنفسه، فرُبَّما سأل سيلًا سال به! وفي الأثر: «**إنَّ رجلًا كان يسألُ الله** عَزَّوَجَلَّ **أنْ يرزقَه الجهاد، فهَتَف به هاتِفٌ: إنَّك إنْ غزَوتَ، أُسِرْتَ، وإنْ أُسِرْتَ، تنصَّرْتَ**».

47- «كشف المشكل مِن حديث الصحيحين» (3/ 401).

48- «الـحسنة والسيئة» (ص 119).

❹ إذا سَلَّمَ العبدُ تحكيمًا لحكمته وحُكمه، وأيقنَ أنَّ الكلَّ مِلكُه، طاب قلبُه، قُضِيت حاجتُه، أو لم تُقْضَ.

❺ **إذا رأىٰ العبدُ يومَ القيامة أنَّ ما أُجيبَ فيه قد ذهب، وما لم يُـجَب فيه قد بقي ثوابُه، قال: ليتك لم تُجِبْ لي دعوةً قط.**

❻ إذا انزعجتْ نفسُك، وقلِقَتَ مِن تأخُّر الإجابة، فتذكَّر:

○ بأنَّك عبدٌ مملوك، والـمملوكُ العاقلُ يطالِب نفسَه بأداء حقِّ المالك، ويعلَمُ أنَّه لا يجبُ علىٰ المالك تبليغُه ما يهوىٰ.

○ **أنَّ الدُّنيا دارُ ابتلاء واختبار، فإذا طلَبتَ أغراضَك، ولم تصبِر علىٰ ما ينافي مرادَك، فأين الابتلاء؟!** وهل الابتلاء إلَّا الإعراضُ، وعكسُ المقاصد؟ فافهم معنىٰ التكليف.

○ أنَّك قد استبطأتَ الإجابة، وأنتَ سدَدْتَ طُرُقَها بالمعاصي، فلو قد فتَحتَ الطريق، أسْرَعَتْ. كأنَّك ما علِمتَ أنَّ سببَ الرَّاحة التقوىٰ! أو ما سمعتَ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾[الطلاق: ٤]؟! أو ما فهمتَ أنَّ العكسَ بالعكس؟!

○ **أنَّك تطلبُ ما لا تعلَمُ عاقبتَه، ورُبَّما كان فيه ضرَرُك،** فمَثَلُك كمَثل طفلٍ مَـحْمُومٍ يطلُب الـحلوىٰ، والـمدبِّرُ لك أعلَمُ بالـمصالح، كيف وقد قال الله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾[البقرة: ٢١٦] ؟!

○ أنَّ هذا المطلوبَ ينقُصُ مِن أجرِك، ويـحُطُّ مِن مرتبتك، **فمَنعُ الحقِّ لك ما هذا سبيلُه: عطاءٌ منه لك،** ولو أنَّك طلبتَ ما يصلُح آخرتَك، كان أولىٰ لك.

❼ **إيَّاك أنْ تسألَ شيئًا إلَّا وتقرِنه بسؤال الـخِيرة، فرُبَّ مطلوبٍ مِن الدنيا كان حصولُه سببًا للهلاك،** وإذا كنتَ قد أُمِرتَ بالمشاورة في أمور الدنيا لـجليسك، فكيف لا تسأل الـخيرَ ربَّك، وهو أعلَمُ بالمصالح؟! والاستخارة مِن حُسن المشاورة.